# ذكرى التأسيس الخامسةُ والعشرون
# تأكيد على صلابة الركائز

"إن لم يبن الربّ البيت فباطلاً يتعب البنّاؤون
إن لم يحرس الربّ المدينة، فباطلاً يسهر الحارسون." (مز ١٢٧: ١)

صاحبَ الغبطة البطريرك يوحنّا العاشر الكلّيُّ الطوبى
أصحابَ السيادة الأجلاّء
الآباءَ المحترمين
السادة أعضاء مجلس الأمناء
حضرة رئيس الجامعة والزملاء الأحباء
أيّها الحضور الكرام،

يحضرني اليوم هذا القول للنبي ونحن نتذكّر أن الله سمح منذ خمس وعشرين سنة، أن يتطوّر الحضور البلمنديّ ليحتضن جامعة تكلّل جهودًا من العطاء التربويّ انطلق سنة ١٨٣٣ بموجب فرمان عثمانيّ. سمح الله أن أساهم في عمليّات التحضير لنشوء الجامعة، وأن أرافق خطواتها الأولى. لكن تجدر الإشارة إلى أنّنا في مؤسّسة تعود جذورها إلى مئة وثمانين سنة، إذ أن فرمان سنة ١٨٣٣ نصّ على تعليم جامعيّ منذ ذلك الوقت، وأن بعض مكوّنات هذه المؤسّسة هي أقدم من تاريخ التأسيس الحديث. لكنني لن أتكلّم إلا على الفترة الممتدّة بين سنتيّ ١٩٨٨ و١٩٩٣، وحينها كان حضورُ معهد القديس يوحنّا الدمشقي اللاهوتيّ والأكاديميّة اللبنانيّة للفنون الجميلة حضورًا مميزًا ساهم معنويًّا وعمليًّا في إعطاء الجامعة الحديثة التأسيس سندًا هامًّا لانطلاقها.

بدأت كلامي بذكر هاتين الآيتين من المزامير لأن كلّ متتبع لنشوء الجامعة يعي أن يدّ الله رعتها وباركت جهود العاملين، ونوايا المتبرّعين، وسهر المسؤولين، وأوّلهم المثلث الرحمات البطريرك إغناطيوس الرابع. في الذكرى العاشرة للتأسيس أصدرت الجامعة كتابًا ضمّنته العديد

من المعطياتِ التاريخيّة والحوادثِ، والأسماءِ، والمعلوماتِ العائدة إلى الأبنية، والمتبرّعين بها، ونشوء الوحدات الأكاديميّة. لذلك لن أُرْهق سمعَكم بتكرار ما أنتم قادرون على قراءته، أو سبق لكم أن قرأتموه. لكنني أودّ أن أتوقّف معكم عند محطّات كانت هي التأسيس بالذات لأنّها وضعت مداميك انطلاق الجامعة وتطوّرها. وقد جاءت هذه المحطّات في سياق النقاشات التي كانت تدور حول الجامعة الأرثوذكسيّة في أنطاكية كنموذج وحيد لم تؤسّس الكنيسة الأرثوذكسيّة مثله من قبل.

كانت المحطّة الأساس قرار بناء الجامعة في البلمند في فترة كان لا يزال فيها لبنان يعيش آلام الفرقة والعنف بين أبنائه. لم يكن إنشاء صرح تربويّ جديد هو المهم في القرار، بل كل الأهميّة كانت في زمن اتخاذ هذا القرار، وفي الموقع الجغرافيّ الذي اختير. هذان الوجهان كانا بمثابة إعلانٍ من الكنيسة أنّها للجميع، وأنّها تؤمن بقدرة الإنسان على اللقاء في العمق مع من هو مختلف عنه، وأن دورها، ككنيسة، يقوم على السعيّ لجعل هذا اللقاء واقعًا وليس فقط تمنيًا.

ثاني هذه المحطّات كانت في الإجابة على السؤال: ماذا سيكون شعار الجامعة؟ بعد تداولات عديدة ومتلاحقة، أتى الجواب من صاحب الغبطة البطريرك إغناطيوس. فليكن الشعار: "والحق تعرفونه"، وقد استلهم هذه العبارة من الكتاب المقدّس وهي تكتسب في هذا السياق بُعْدًا مختلفًا، لأنّها دعوةٌ، وتأكيدٌ، وأمرٌ في آن. فمن الضروريّ أن تقود الجامعةُ المتعلّمَ إلى الحقّ، ومن واجب هذا الأخير أن يكتسب التمييز، والحرّية، والفكر النقديّ الذين سيسمحون له بأن يفرّق بين الحقّ والباطل وأن لا يساوي بينهما.

لذلك كانت المحطّة الطبيعيّة التي تلي هذه المحطّة هي انتقاء شعار غرافيّ (LOGO) للجامعة. فقرّ الرأي على رسم، أُخِذَ من الناموس الشريف، لا نزال نستخدمه الآن، فقط، على شهادات الجامعة وختمها المذهّب. وهو يرمز إلى حضور الروح القدس الذي تأتي منه كلّ استنارة للأذهان، لأنّ، وبحسب لاهوتنا المشرقيّ، يدخل الإنسان بكلّيته في مغامرة تقبّل إنزالات الروح عليه، سواء كان مدركًا لهذا الفعل الإلهيّ أم لا.

رابع المحطّات كانت في إقرار اعتماد مقاربة فكريّة فذّة لإعلان جوهر الرسالة التي تحملها الجامعة لمحيطها. فكان، وذلك منذ سنة ١٩٨٩، اعتماد برنامجٍ مميّزٍ للثقافات والحضارات، جاء بعد دراسات ونقاشات طويلة ليختصر رؤية حيّة لنظرة الكنيسة الأنطاكيّة لدورها في محيطها، إن في الانفتاح على الحضارات السابقة، أو في التعريف عن المسيحيّة الشرقيّة، أو في التعريف عن الإسلام وعلاقات الانفتاح التي ميّزت التعايش بينه وبين المسيحيّة في ديارنا، أو في التعريف عن الدور الحضاريّ الذي لعبه المثقّفون العرب في المشرق. دُرِّس هذا البرنامج بضع سنوات، وتخطّى في محتواه ومنهجيتِهِ البُعْدَ التعليميّ البحت ليدخل إلى صلب إشكاليّة الحوار بين الكنيسة ومحيطها، هذا الحوار الذي يبني الإنسان على الانفتاح والمحبّة في آن.

كان هذا التمايز في برنامج الثقافات والحضارت جزءًا من رؤية الجامعة لخصوصيّة برامجها في حقول الإنسانيّات كالآداب، والتربية واللغات، وتشكِّل هذه الرؤية محطّة خامسة في التأسيس. جهدت الجامعة لاعتماد مناهج تختلف عن برامج مشابهة في جامعات أخرى، وذلك من حيث تركيزها على دور الجامعة المجتمعيّ، وعلى ضرورة محاكاة العصر محاكاة علميّة فتنقل نظرة الكنيسة إلى الإنسان الحرّ والمسؤول عن بيئته. لذلك لم تتغرّب البرامج عن الواقع بل قصدت أن تموضع المناهج ليشعر الطالب والأستاذ معًا بأهميّة ارتباط المضمون المعرفيّ بالواقع الاجتماعيّ. ولا يسعني إلاّ أن أذكر هنا، أن التوجّه الذي تبلور في هاتين المحطتين، والذي دام بضع سنوات، شكّل عاملاً أساسيًا، في مرحلة التأسيس بالذات، لإرساء قواعد ثقة بين المجتمع والبيئة العلميّة من جهة، والجامعة الفتيّة من جهة أخرى.

أتت سادس المحطّات بقرار من مجلس الأمناء الأوّل للجامعة، واتخذت وجهين: أولّهما انتقال مركز الدراسات الأنطاكيّة إلى حضن الجامعة تحت اسم "معهد التاريخ والآثار والدراسات الأنطاكيّة"، وثانيهما تأسيس "مركز الدراسات المسيحيّة – الإسلاميّة" كوحدتين أكاديميتين أساسيتين في الجامعة. مهمّة الوحدة الأولى موجّهةٌ لخدمة الكنيسة، صاحبة الجامعة وراعيتها، حتى يُكْشف تاريخُها، ويُحفظ تراثُها، وتُثمّن موروثاتُها فتُرَسَّخ الأجيالُ الطالعة في

إرثها. أما مهمّة الوحدة الثانيّة فموجّهة نحو بيئتنا العربيّة التي تجمعنا بها وحدة مصير، فتشهد المسيحيّة العربيّة على تواصل تاريخيّ يؤكّد على ثباتنا في أرضنا وفي مبادئ التعايش مع كلِّ المواطنين.

وأتت المحطّة السابعة، بتوجيه صريح من البطريرك إغناطيوس الرابع، لتؤكّد على أن الجامعة عربيّة الهوى، واللغة، والشهادة. التأصّل في المشرق مرتبط باللغة العربيّة التي هي لغة الجامعة الرسميّة والتي بها تطلّ على محيطها. أمّا اللغات الأخرى، على أهمية امتلاكها، والتعامل معها، فهي وسيلة لنبقى على تواصل مع التطوّر الحضاري في العالم فلا نقع في فلسفة انغلاق، ولا في أيديولوجيّة مُعَوْلِمة. منذ اليوم الأوّل للتأسيس، أتت هذه السياسة اللغويّة لتشكِّل خصوصيّة جامعة البلمند في فلك التعليم العالي في لبنان والبلاد العربيّة، وقد دلّت الظروف على أنها كانت السياسة الحكيمة والناجعة.

صاحب الغبطة،

هذا ما عندي أن أنقله عن مرحلة التأسيس الذي كان لي شرف مواكبتها، كتأريخ لا للحوادث، بل للفكر الذي هو وراء الحدث. كشاهد لهذه المرحلة، أودّ أن أقول: إني مؤمن بأن الله فعل في هذه الكرمة بواسطة محبّيه والمؤمنين بدور الكنيسة الأنطاكيّة وخصوصيتها. كما أومن أن الله هو حارس هذه الكرمة ومنمّيها بواسطة مواهب سمح بأن تُزْرَع فيها. وأنا مؤمن أيضًا أن ما أشهد له عن هذه المرحلة التي وصفت يبقى الضامن الأساس لاستمراريّة في العمل على حسب قلب الله، ببركتكم ورعايتكم وتوجيهاتكم.

وإلى سنين عديدة يا سيّد.